أسس العملية الخطابية

بين البلاغة العربية والنظرية التداولية

الأستاذة: قوتال فضيلة

الطالب: قعموسي عبد القادر

جامعة تيارت ـ الجزائر

توجد عناصر تعمل على بلورة العملية التواصلية، وأسس ترتكز عليها يمكن لنا معرفتها وتفصيلها، وذلك من الخطاب ذاته بوصفه الميدان الذي تتبلور فيه هذه العناصر المتمثلة في: (المتكلم، والمتلقي والنص).

المتكلم ودوره في بناء الخطاب:

يمثل المتكلم (منتج الخطاب) صاحب نية التواصل والمسؤول الفكري والقانوني عن إنتاج الخطاب وعن نجاح عملية التواصل أو فشلها، إنه فاعل اجتماعي يفعل داخل مقامات اجتماعية ملموسة ومحددة، ويرى الخفاجي أن المتكلم هو: " من وقع الكلام من قصده وإرادته واعتقاده (...) والذي يدل على ذلك أن أهل اللغة متى علموا واعتقدوا وقوع الكلام بحسب أحوال أحدنا، وصفوه بأنه متكلم، ومتى لم يعلموا ذلك أو يعتقدوا، لم يصفوه "[1]، كما يرى (أوستن) أنه توجد أفعال عديدة يمكن ربطها بالمتكلم، والمتكلم لا يصدر أصواتا فقط من خلال كلامه ولكنه ينجز بعض الأفعال، حيث تصدر هذه الأخيرة الحجج التي من شأنها إقناع المتلقي[2]، ويفرض هذا الدور كفاءات هي: كفاءة الإنتاج (كفاءة قبلية تتيح إنتاج خطاب بليغ)، وكفاءة إنجاز (كفاءة بعدية ؛ تحويل الخطاب إلى رسالة شفوية بصرية) [3].

اهتم الجاحظ بالكفاءات الخاصة بالمتكلم والتي تمكنه من التأثير في متلقيه محددا بذلك خصائص الإرسال الشفهي من حيث هو نطق وإشارة بنان، مركزا على الصورة أو المظهر الخارجي الذي ترسل فيه الرسالة، ذلك أن هذه الأخيرة ترسل في حضور حشد من الجمهور والذي كان في غالب الأمر من الأشياع والأتباع للخطيب الذي يهجو أو يمدح، ومن ثم لم يكن الخطيب في حاجة إلى الاستدلال والتعليل قدر احتياجه إلى المبالغة والتنغيم[4].

يسعى المتكلم إلى إظهار الخفي وتوضيحه للسامع بالاستعانة بكل الوسائل اللسانية والإشارية لتحقيق الفهم والإفهام، متكئا في ذلك على الكفاءات القبلية والبعدية الآتية:

1- **كفاءة الإنتاج**: تتمثل كفاءات الإنتاج في الكفاءة اللغوية، والكفاءة الثقافية التداولية، والكفاءة النفسية الانفعالية[5]، وهو ما يؤسسه حسن المودن

1-1 **الكفاءة اللغوية الأدبية**: تتمثل في معرفة متكلم باللغة والعلم بأسرارها، وإنتاج الكلام وفق أصولها وقواعدها اللغوية والأدبية والقدرة على الإبداع والابتكار وإنتاج الكلام البليغ.

1-2 **الكفاءة الثقافية**: وهي أن يلم المتكلم(مؤلف الخطاب) بثقافة المتلقي، وأن يستثمر عناصر هذه الثقافة في الإقناع والتأثير

1-3 **الكفاءة النفسية قسمان**:

الكفاءة النفسية الأولى: لها علاقة بالحالة النفسية الانفعالية التي يستحسن أن يكون عليها المتكلم عندما يقبل على إنتاج الكلام البليغ، ويمثلها "الطبع " ؛ ويقصد به السجية التي جبل عليها الإنسان، وقد اعتبره الجاحظ " رأس الخطابة[6]، وبدونه لا تغني تلك الآلات شيئا، ومثل ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة"[7]. والطبع الذي يريده الجاحظ هو الطبع الجيد القادر بالفطرة على الأداء والإلقاء نطقا وحركة، فالناس يختلفون في قدرتهم على الإبداع القولي كما يتفاوتون في القدرة على الإبداع التعبيري الكتابي، وهذا ما نجده عند القاضي الجرجاني في قوله : " وأنت تعلم أن العرب مشتركة في اللغة واللسان، أنها سواء في النطق أو العبارة، وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة، ثم تجد الرجل منها شاعرمفلق، ابن عمه وجار جنابه ولصيق طنبه بكيئا مفحما، وتجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر، والخطيب أبلغ من الخطيب، فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحدة القريحة والفطنة . وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظة تتبع سلامة الطبع، ودثامة الكلام بقدر دثامة الخلقة "[8]؛ فالقاضي الجرجاني يرجع العلة في الاختلاف الكائن بين المستويات الإبداعية لأفراد المجتمع الواحد، المشتركين في اللغة واللسان، إلى اختلاف الطبع فيهم.

الكفاءة النفسية الثانية: وهي رباطة جأش الخطيب، وتمثل الحالة النفسية لإنجاز الخطاب وإلقائه أمام السامع، ذلك أن المتكلم لا يستطيع مواجهة الجمهور الشاخص بأبصاره إليه دونها، وقد رأى العرب القدامى في اشتراطهم رباطة الجأش في الخطيب أنها لا تقف عند حدود الخطابة بل تتجاوزها إلى مجالات الإلقاء دون استثناء، وفي هذا اعتمد الجاحظ رأي أبي الأشعث في صفات الخطيب ودعا إلى " أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة"[9]؛ فالخطيب متى ما توفرت فيه هذه الشروط، كان أبلغ للمعنى، أزيد في الإفادة، أقدر على استمالة السامعين والتأثير فيهم.

2-كفاءة الإنجاز (الكفاءة البعدية)

2-1 شروط إنجاز الكلام البليغ ودورها في الإقناع: إن لظروف الإنجاز دورا فعالا في بناء الخطاب الحجاجي، فالإنجاز البليغ يعني أن يقدم المتكلم للسامعين قطعة نصية موجزة، جيدة البناء، بليغة في صمتها وكلامها، خفية في تأثيرها وإقناعها لا تملها الأذان وتتعلق بها القلوب وتحتفظ بها الصدور. ومن أهم الأدوات التي تحقق كفاءة الإنجاز:

2-1-1 **الصمت/ الإنصات**: لا نقصد بالصمت هنا الانقطاع عن الكلام بغير حاجة، بقدر ما نقصد به الإنصات وحسن الإصغاء للمتكلم، مما يفيد صاحبه في العملية التواصلية على التفكر والتدبر، فإذا ما أراد السامع أن يصل إلى درجة العلم بالشيء، فعليه بحسن السمع والإصغاء، فـ "أول العلم صمت، والثاني استماع"[10] على حد رأي الجاحظ الذي قرن الصمت بالاستماع، ليدلل على فائدة الصمت حينما يكون بغرض الإصغاء، فالمستمع الصامت في أغلب الأحيان إنما ينصت إلى محدثه، وهو يفكر في الرد عليه أو ما يمكن أن يضيفه إلى ما يستمع من قول.

2-1-2 **وقف السكوت**: يرادف مفهوم السكوت، ويعني قطع الكلام لوقت قصير، ويكون الوقف للمعنى ابتغاء تأكيده وإبرازه، من غير أن يكون الخطيب في حاجة إلى ملء رئتيه بالهواء، ووجوب الوقف أو السكوت في موضعه يستدعي تلقائيا تجنبه في غير موضعه وعدم الاستعانة بملاه بكلام لا ضرورة له، فالبليغ هو "كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة

ولا استعانة"[11]. والاستعانة هي أنك ترى الخطيب "إذا تحدث قال عند مقطع كلامه يا هناه، يل هذا، استمع"[12] إلي، افهم عني، أولست تعقل، فهذا كله فساد وعيّ.

2-1-3 **دور كفاءة الأداء في الإقناع**: إن إنجاز خطاب بليغ إقناعي يتطلب من المتكلم استعمال صوته وجسده ولباسه بالشكل الذي يسمح بالحديث عن بلاغات أخرى غير لفظية، يستغل المتكلم إمكاناته في التأثير والإقناع، ذلك أن الخطاب الإقناعي الشفوي لا يتحدد فيما يسمعه السامع فقط، بل فيما يراه أيضا من انفعالات مصاحبة، وهو ما نجده عند الجاحظ في إشارته في البلاغات غير اللفظية ووظيفتها في الإبلاغ والتأثير والإقناع بقوله: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل ؛ لأن "مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام ؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الوضع"[13]. ويفرض تصور الجاحظ لمفهوم البيان وظيفتين يقوم عليهما، وظيفة إفهامية ووظيفة إقناعية وهما بين البلاغة اللفظية وغير اللفظية، وتتمثل هذه الأخيرة في الصور الآتية:

الإشارة: وهي تساهم بقدر كبير في الإقناع والتأثير، وقد جعلها الجاحظ بعد الفهم، خاصة في الخطابة، والتي هي النموذج الراقي في عصره، فـ: " لولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب البتة" كما طرح مفهومها على مستويين[14]:

المستوى الأول: مساعدة على التبليغ، مصاحبة للفظ مكملة له، ولأنها جزء من البلاغة العربية فقد حظيت منه باهتمام كبير من جهة، وكونها من أخرى هدفا للمطاعن الشعوبية.

المستوى الثاني: الإشارة في حد ذاتها نسق خارج اللغة، وتحتوي عنده صور التعبير الاجتماعي، كطريقة اللباس، الأزياء، والمراكب وغير ذلك من المظاهر المعبرة التي يرمي من ورائها التأثير في الآخرين[15]. و الإشارة صنف من أصناف الحياة التواصلية، ولها وظائف إبلاغية وإقناعية صنفها الجاحظ كما يلي: 1-إشارة بعض أطراف الجسم، وتكون" باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب.."، ومثال ذلك قول الشاعر[16]:

تَرَى عَيْنُهَا عَيْني فتَعْرفُ وَحْيَهاَ وتَعْرفُ عَيْني مَا به الوَحْيُ يَرْجعُ

1- الإشارة التابعة للفظ والكلام، وقد عد الجاحظ " الإشارة واللفظ شريكين في الفضل، ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط"[17]. وتحتوي المظاهر الإشارية والسلوكية المصاحبة للغة المدعمة لها التي أوردها الجاحظ، معاني وحججا يقتدر بها الخطيب والشاعر في معركة الحجاج التي يخوضها مع مناوئيه إثبات رأيه وإقناع الآخر والتأثير فيه[18].

المقومات النصية ودورها في بناء الخطاب الإقناعي:

النص: هو عبارة عن إجراء فعلي أو أداة للفعل الكلامي (كتابي أو شفوي) في سياق محدد، حيث تأخذ هذه الأداة وتتحول في نفسها إلى موضوع للتفكير والاشتغال والإبداع، ونتيجه لهذا التغير، ويأخذ النص فعالية أكثر، تكمن في قدرة النص البليغ على تغيير الأشكال الصوتية والاستعارية والمجازية إلى عوامل أساسية في بناء إقناعي للنص، بحيث تكون في الوقت نفسه قادرة على إقناع العقول واستمالة القلوب، فـ: " لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معنا ه إلى قلبك "، ونلمس من هذا القول مدى اهتمام البلاغيين بالخصائص[19].

والإمكانات (النظم، المقام) التي يجب أن يتمتع بها النص ويحويها والتي تعمل على جذب المتلقي. كما ترى النظريات الغربية الحديثة مفهوم التكليم أو الإنجاز الذي هو فحوى النص أنه فعل لغوي موجه إلى إحداث تحولات ذات طبيعة قانونية (مجموعة من الحقوق والواجبات).

النظم ووظائفه الشعرية والتداولية:

ترجع فكرة النظم إلى الدرس الإعجازي الذي يرى أن السر في إعجاز القرآن كامن في نظمه، وأن غاية القرآن إبلاغية إفهامية تهدف إلى إقناع المتلقي والتأثير فيه. حول هذا المعنى جرت أقلام علماء العربية ممن سلكوا هذا الطريق من أمثال الجاحظ(نظم القرآن)، وأبو عبيدة بن المثنى(مجاز القرآن)، والفراء(معاني القرآن)، وغيرهم كثير، وظلت فكرة النظم تدور حول معنى الضم والتأليف، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني (تـ:471 هـ) فأرسى قواعدها وأقامها وفق نظرة تكاملية بين البلاغة والنحو (المعاني النحوية)؛ فالنظم عند عبد القاهر ليس إلا" أن تضع كلامك

الوضع الذي يقتضه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها، وذاك أنا نعلم شيئا يبتغي الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه"[20]. ويعتبر النظم مكونا جوهريا في تحليل الكلام، وذلك من خلال أربعة أبعاد أساسية تؤدي وظائف مختلفة وهي: الاتساق التركيبي، والتناسق الدلالي، والتلاؤم التداولي، والأثر الإقناعي[21].

الاتساق التركيبي: هو الضبط الداخلي للغة عن طريق القواعد النحوية التي تقوم بإيضاح الفروق بين معاني الكلم .

التناسق الدلالي: المتمثل في صلابة المعنى، انطلاقا من معاني الكلمات المتجاورة معجميا(المنتمية إلى الحقل المعجمي نفسه.)

التلاؤم التداولي: هو مراعاة مقتضى الحال في النظم بحيث تكون هناك ملائمة بين السياق الداخلي اللغوي والمقام الخارجي.

الأثر الإقناعي(الحجاجي): يلعب النظم دور المحرك لانفعال المتلقي أو استمالته والدفع به لقبول فكرة معينة(الإقناع).

كما تناول عبد القاهر الجرجاني التقنيات التركيبية كالوصل والفصل، والحذف، والإظهار والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، وذلك لإجلاء المعنى وتحديده، وليوضح عبد القاهر دور النظم في عملية الإقناع والإمتاع عمد إلى قول إبراهيم بن العباس[22].

فَلَوْ إِذْ نَبَا دَهْرٌ، وَأُنْكِرَ صَاحبٌ وَسُلطَ عَدْاءٌ، وَغَابَ نَصيرٌ
تَكُونُ عَن الأَهْوَاز دَاري بنَجْوَة وَلَكنْ مَقَادَيْرٌ جَرَتْ وأُمُورُ
وَإِني لأَرْجُو بَعْدَ هَذَا مُحَمَّدًا لأَفْضَل مَا يُرْجَى أَخٌ ووَزيْرٌ

"فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة، ومن الحسن والحلاوة، ثم تتفقد السبب في ذلك، فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو "إذ نبا" على عامله الذي هو "تكون" وأن لم يقل "فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر"، ثم أن قال " تكون" ولم يقل :"كان" ثم نكر الدهر ولم يقل: " لو إذ نبا الدهر"، ثم ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعد. ثم أن قال: "وأُنْكِرَ

صَاحبٌ" ولم يقل: " وأنكرت صاحبا". لا ترى في البيتين الأولين شيئا غير الذي عددته لك تجعله حسنا في النظم؛ وكله في معاني النحو كما ترى. وهكذا السبيل أبدا في حسن ومزية رأيتهما قد نسبا إلى النظم وفضل وشرف أحيل فيهما عليه"[23].

سلك الجرجاني في تحليله القول مسلكا إبداعيا، أعطى بذلك للمقولات النحوية أبعادا تداولية ومعاني جديدة ووظائف تأثرية، ذلك أن المتلقي تهتز مشاعره لكل ماهو جميل، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال اتباع النظم وما تأتي به معاني النحو.

إن هذا القول أسس مفهوما للنظم يجمع بين النظر إليه كمكون داخلي من المكونات البنيوية للنص، لا من المنظور النحوي الضيق، آخذا بعين الاعتبار شعرية النظم وانزياحاته وانتكاهاته، مع إعطائه نظرة تداولية من خلال عملية التأثير التي تحدثها شعريته[24]. ومن خلال هذا الطرح أصبح للنص آفاق جديدة تعدت مجرد اللفظ في التركيب.

المقام ودوره في إنتاج الخطاب الحجاجي:

تقوم البلاغة على المقام فهو جوهرها ومنبعها، وقد ارتقت دراسة السكاكي له إلى مستوى النموذج العلمي والبحث عن القصدية (التداولية)، وكذا ملائمة العبارة إلى ما تصبو إليه ضمن نظرية النظم الإعجازية، مع البحث عن الذوقية الجمالية في البلاغة الكلاسيكية[25].

لكل مقام مقال :

لكل مقام مقال، الركيزة التي تنشدها البلاغة العربية ؛ أي مطابقة الكلام لمقتضى الحال "فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، وجميع ذلك معلوم لكل لبيب"، فلا تخاطب في مقام التهنئة بكلام التعزية، ولا في مقام الترهيب بكلام الترغيب، ولا مقام المدح بكلام الذم، وفي هذا الصدد يقول: (بيرلمان) في نظريته: "وتتعلق خصائص الباث (الخطيب) بالجانب الشكلي والنفسي الخاص بالمتكلم، وخصائص أخرى يتلون بها الباث انطلاقا من المقام وأحوال

السامعين"[26]، ومنه فالفهم السليم للكلام (الخطاب) لا يقاس بفهم الجمل فقط بل بالإدراك السليم لمراد المتكلم ومقاصده منه يتحقق الإقناع والتأثير.

مراعاة المتلقي:

تفرض العلاقة الوثيقة القائمة بين المرسل والمتلقي (مقصديه الإفهام، واستجابة التلقي)، تغير قصد المتكلم (أغراض الخطاب) بتغير أحوال المتلقي، "فإذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولايتجاوز به عما يعرفه إلى ما لايعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب"[27]

مراعاة التراكيب للأغراض والمقاصد:

يبنى علم البلاغة على علم المعاني، وفيه فكرة المقام، وحده في البلاغة أنه "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من استحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره"[28]، فهو يعني بدراسة أنواع الأساليب اللغوية ومقامات كل منها، إلى عنايته بالأغراض الفرعية في مقابل الأغراض الأصلية للأساليب العربية (النداء، والنهي، والاستفهام)، وهي أغراض لا تتحدد إلا من خلال معرفة المقام التواصلي.

أما التداولية تنطلق من هدف أساسي، هو استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسالة لغوية معينة وجعل المعني بها يعيها ويتحرك في إطار إنجازها، ولعل هذا ما يدفع بعض التداوليين المعاصرين إلى أن البلاغة هي " فن الوصول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ ...[لأن البلاغة في نظر هؤلاء] نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد".

كما تتجلى أهمية التداولية في دمجها المستويات اللغوية المختلفة في منظومة واحدة ودراسة اللغة على أساسها، أثناء الاتصال (دراسة اللغة قيد الاستعمال)، فتجعل المتلفظ بالخطاب (المرسل)، يرتبط بالمقام، فيتنبأ بما يستلزمه الموقف، يراعيه أثناء إنجاز خطابه، وبذلك "يغدو معنى الملفوظات هو القيمة التي يكتسبها الخطاب في سياق التلفظ "[29]، وهذا ما يجعل المتلفظ بالخطاب هو المتحكم

في المعنى، لا اللغة نفسها، وبذلك يستطيع ضمان حصول عملية الفهم والإفهام، حيث يوظف مستويات اللغة بما تستجيب مع قصده، متكئا في ذلك على السياق، باعتباره مؤشرا مهما في نظام الخطاب المنجز.

إن المتأمل في البنية المفاهيمية للبلاغة الجديدة يلاحظ أنها لم تخرج عن نطاق تعريف القدماء، والذي وسع دائرته المحدثون بإيجاد مرتكزات تستند فيها على معطيات البلاغة القديمة، هذه المرتكزات تتجلى في (المتكلم، والمخاطَب، الخطاب، الموقف الخارجي)، فتنوع هذه العناصر وتباينها في التأثير والإيصال عمل على عزل وفصل البلاغة عن الأصول الكلامية المقننة التي تبلغ مستوى الكلام البليغ المؤثر، وبهذا يمكن اعتبار البلاغة منهجا للفهم النصي مرجعه التأثير[30].

لقد وضع المحدثون للبلاغة تعريفات متعددة تلتقي في ايجاد خط التواصل بين هذه العناصر ليكون الكلام مطابقا لمقتضيات المقام وتتحقق فيه السمة البلاغية الإبلاغية، وهو الأمر الذي أكده الباحث **صلاح فضل** عن **لوس برج** بقوله: **"إن البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد"**[31].

و بهذا التصور نفسه يرى **ليتش** " أن البلاغة تداولية في صميمها، إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما"[32].

وهو الرأي الذي أشار إليه محمد العمري أن البلاغة العربية قد أعيد لها الاعتبار في الدراسات المعاصرة فيما يعرف بالتداولية[33]، وعلى أساس هذه الآراء يعقد صلاح فضل رؤية جامعة بين الآراء ليصل إلى أن "البلاغة والتداولية البرجماتية تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو نص في موقف"[34].

و نعود إلى رأي **هنريش بليث** الذي يؤكد أنه " **عندما نفكر حسب المفاهيم البلاغية فإننا ننظر مبدئيا إلى النص من زاوية نظر القارئ ونجعله تابعا لمقصديه الأثر**"[35]. تحيلنا هذه الآراء على أن البلاغة تمتاز بالإفادة وقوة التأثير، وذلك بقصدية إيصال المعنى إلى المخاطَب فتعمل على جذب فكر المخاطب لتتواصل عملية التبادل الفكري، فعلاقة الترابط بين البلاغة القديمة والجديدة تكمن في مراعاتها لسياق التخاطب، ويتضمن كل ما يتعلق بأوضاع المتخاطبين وهو ما جعل صلاح فضل

يقف عند نقاط التلاقي البلاغة بالتداولية في منعرج الاستعمال والذي يرتبط بالمقام، فهو استعمال اللغة بحسب السياق لحدوث التواصل، وهو ما يجعل الاستعمال مرتبطا بالقول وكيفية إيصاله لطرف المستقبل.

نشأ التفكير التداولي من الاهتمام بالتواصل والاستعمال الفعلي للغة، فقد ارتبطت التداولية بحقل الفلسفة ثم انفصلت عنها لتكون ذات توجه لساني يعنى بدراسة اللغة لحظة الاستعمال . إن أهم ما ركزت عليه الأبحاث التداولية في مجال فهم الخطاب والتخاطب، هو النظر إلى الأداء الكلامي ضمن السياق، إذ لم يعد ذلك الأداء متعلقا بفهم اللغة بوصفها موضوعا مستقلا عن الممارسة بل بتمييزها وتفسيرها وفقا لتحديد الاستعمال اللساني، فالتواصل مبني على التبادل الكلامي بين متكلم يوجه كلامه نحو متلق قصد الفهم والإفهام.

تتكفل الطروحات البلاغية والتداولية على طول الخط الدراسي القديم والحديث بكشف العلاقة الوثيقة بين المعالجتين، إذ أن البلاغة والتداولية ترميان إلى النظر في أحوال المتخاطبين أثناء الحديث ضمن العملية التواصلية، فالعلاقة بين المرسل والمتلقي التي حرصت البلاغة على إبرازها قد وجدت طريقها في حقل التداولية التي عنيت بالسياقات المختلفة وأطراف الموقف التواصلي، الأمر الذي نجد له حديثا في البلاغة العربية بما يعرف بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، لتضمن البلاغة بهذه الرؤية محورين المحور اللساني والمحور غير اللساني –السياق– يعتمد المحور اللساني على كفاءة المتكلم والمتلقي (كما سبق ذكره) وتتجلى مقوماته من خلال الخطاب الجامع بينهما في كيفية إنتاج الكلام بوصفه حاملا لمعنى، وكذا استيعابه وتحليله وفق توفر عامل الكفاءة، وقد ركزت البلاغة العربية على تلك الأسس التي أرساها اللغويون المحدثون في ميدان الدراسات التداولية لأنها تشمل دراسة الخطاب ومعالجته وتحليله وصولا إلى إبراز المعنى المقصود من إنجازه والذي لا يمكن الوصول إليه إلا بالتمعن في اللغة المستعملة والتي تتعلق مع المنحنى القصدي للمتكلم، و هذا ما يدخل في دائرة اهتمام الدراسة القصدية في أحد فروع الدراسات التداولية.

أما المحور غير اللساني –السياق– فهو ذلك الموقف الذي ينتج فيه الخطاب –اللغة– بربطه بطرف التخاطب(المتكلم والمتلقي) للوصول إلى الهدف من التواصل، والذي يتمثل في التأثير ويتأتى

ذلك بتأثير ضمني للسياق في فهم الخطاب، وكل هذه العناصر المتفرعة والمشتركة بين المحورين تجتمع ضمن الاتجاه التداولي الذي يعنى بالأطراف الأربعة المساهمة في إنتاج الخطاب (الخطاب، المخاطَب، المخاطب، الموقف الخارجي) للوقوف عند مقاصد التواصل ومضمرات الخطاب، من أجل الوصول إلى الفهم والإفهام.

وهنا تبرز لنا مواطن التلاقي والتشابه بين مفهوم البلاغة ومفهوم التداولية، بالنظر إلى الالتقاء القائم بين مباحثها، وهذا ما يثبت قول ليتش أن البلاغة تداولية في صميمها، كونها تعنى بممارسة الفعل على المتلقي بحسب موقف التواصل والتلقي[36]. ومن الملاحظ أن البلاغة العربية تتشابك مع الدرس التداولي الحديث وذلك بالنظر في عامل الانجاز والأثر المترتب عنه.

فالبلاغة دعامة أساسية للدراسات الحديثة أيا كانت أشكالها وتعبيراتها وفنونها، كما أنها تتيح السبل للمتكلمين للتعبير والإبداع والتواصل بمختلف المستويات اللغوية وهي مستويات مشاركة في تعين عناصر العملية المتخاطبة وتوجهها وفقا لأبعاد التداولية والتي تتلخص في ضرورة ربط اللغة بالاستعمال[37]. إن غالبية المعطيات البلاغية تتداخل بشكل كبير مع المنظومة التداولية كحالات أفعال الكلامية وحالات إنتاج الأنماط الخطابية الخاصة المتشكلة من العناصر التداولية تجسيدا لقصدية المتخاطبين والتي تنبني على التواصل الهادف.

مراجع البحث وإحالاته

1 ـ ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط:01، 1402هـ- 1982م، ص:44.

2 ـ Voir Pier Paolo Gilioli ،language social context. Penguin –group – London –England ـ stqublished . 1990.p 1362

3 ـ ينظر: يوسف آيت حمو، من التواصل إلى التواصل الشعبي، مجلة الفكر والنقد، الكويت، عدد:36، 2001 .

4 ـ ينظر:جميل عبد المجيد. البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط:01، 2000، ص:73-75.

5 ـ ينظر: حسن الودن، الخطاب الإقناعي في البلاغة العربية، ملخص عن أطروحة دكتوراه دولة، كلية الأدب مراكش، جوان 2006، ديوان العرب، دراسات وأبحاث.فقرة (018).

6 ـ الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط: 7، سنة: 1998، ج/ 01، ص:44.

7 ـ ابن الأثيراً المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (دط، دتا).مج:01 .ص:38.

8 ـ القاضي الجرجاني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط:01، 2006اص:23.

9 ـ الجاحظ. البيان والتبيين، 1/ 92.

10 ـ المصدر نفسه. 1/ 198.

11 ـ نفسه ، 1/ 113.

12 ـ نفسه ،1/ 113.

13 ـ نفسه،1 / 76.

14 ـ نفسه، 1/ 78.

15 ـ ينظر: محمد العمري. البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، بيروت-لبنان، ط:01، 1999، ص:205، 206.

16 ـ الجاحظ . البيان والتبيين، 1/ 77.

17 ـ المصدر نفسه، 1/ 78.

18 ـ ينظر:ابن وهباً البرهان في وجوه البيان، تح: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة –مصر، ط:01، 1969اص: 84- 85.

19 ـ الجاحظ. البيان والتبيين، 1/ 115.

20 ـ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفكر، دمشق-سوريا، ط: 01، 1428هـ-2007م. ص:133-142 .

21 ـ ينظر: المصدر نفسه، ص:126 -127.

22 ـ إبراهيم بن العباس الصولي. ديوان ضمن الطرائف الأدبية، تح:عبد العزيز الميمني، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937،ص:132.

23 ـ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:126 -127.

24 ـ ينظر: حسن المودن، الخطاب الإقناعي في البلاغة العربية، ملخص أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، مراكش.

25 ـ ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، تح: أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط:01، 1982. ص:343.

26 ـ محمد سالم ولد محمد أمين. مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج28، ع:03 ن ماي2000، ص:91.

27 ـ الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح:إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط:01 2002.ص: 29.

28 ـ السكاكي، مفتاح العلوم، ص:341.

29 ـ ينظر: عبد القادر بن ظافر شهيري. استراتيجيات الخطاب ، ص:12.

30 ـ هنريش بليثْ البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي، تح: محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص: 22-23.

31 ـ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، 1992، ص:89.

32 ـ المرجع نفسه، ص: 89.

33 ـ محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999ْ

34 ـ صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، 1992، ص: 89.

35 ـ ينظر: هنريش بليث. البلاغة والأسلوبية، ص:25.

36 ـ ينظر: صلاح فضل .بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، 1992، ص:89.

37 ـ ينظر: محمد الجابري. بنية العقل العربي، نقد العقل العربي2، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط6، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000، ص:20.